جهود التهامي الهاشمي الراجي في الدرس اللساني المغاربي

The Efforts of Tuhami Alhashemi Al-Raji in the Maghreb linguistic lesson

ط.د/ ناصر موسى moussanacer87@gmail.com

جامعة الشاذلي بن جديد –الطارف

ط.د/ بوشموخة منى mouna8bouch@gmail.com

جامعة محمد الصديق بن يحي-جيجل

تاريخ الاستلام: 2020/12/01 تاريخ القبول: 2020/12/05 تاريخ النشر: 2021/01/01

ملخص:

لم تكن اللسانيات أو علم اللغة ليعرف هذا التطور الذي هو عليه اليوم دون جهود اللغويين الأوائل الذين اطلعوا على ما وصلت إليه الدراسات اللغوية الغربية وفهموا محاورها ثم نقلوها إلى العالم العربي الذي لم يختر –إلى ذلك الوقت- طريقا واضحا في دراسة اللغة.

ولأن المغرب العربي من المناطق التي كان لها السبق في ترسيخ مبادئ علم اللغة وتيسير دراسته، اخترنا أن نسلط الضوء في هذه المداخلة على جهود الدكتور التهامي الهاشمي الراجحي الذي ألّف مبكرا في ميدان علم اللغة، حيث سنحاول توضيح أهم النقاط التي ركز عليها في عمله، والطريقة التي عالج بها المحاور الأساسية لعلم اللغة.

كلمات مفتاحية: اللغة، اللسان، علم اللغة، المغرب العربي.

Abstract:

It was not the language science to know this development as it is today without the efforts of the first linguists who were familiar with what the western language studies reached, understood its interlocutors, and then transferred it to the Arab world, which did not choose - until then - a clear way to study the language. Because the Arab Maghreb is one of the regions that have previously established the principles of language science and facilitated its study, we have chosen to highlight in this intervention the efforts of Dr. Al-Thami Al-Rajhi, who was early in the field of language science, where we will try to clarify the most important points that he focused on in his work. And the way in which he dealt with the basic axes of language science.

Keywords: Language, tongue, Language Science, Maghreb

مقدمة:

بلغ علم اللغة عند الغرب مرحلة جد متقدمة، حيث تفرعت عنه علوم ونظريات مختلفة، وتعددت مجالات استخدامه وتطبيق نتائجه، في حين أنه لم يشهد في البلاد العربية أي تقدم يذكر، بل وإن من العرب من لم يطلع بعد على ما يشغله هذا العلم، ولم يعرف بعد المحاور الأساسية له، ولذلك ونظرا للحاجة الملحة التي لاحظها نخبة من علماء اللغة العرب؛ قرر هؤلاء حمل العبء وتولي مسؤولية نقل هذا العلم وتقريبه من القارئ العربي.

اللسانيات التمهيدية:

إن الباحثين العرب في النصف الثاني من القرن العشرين اهتموا اهتماما ملحوظا بنقل ما استحدث من نظريات لغوية عند الغربيين الذين تقدموا في دراسة اللغة تقدما كبيرا، وقد أطلق مصطلح اللسانيات التمهيدية على كل الدراسات العربية التي ظهرت في وقت مبكرلتقرب المفاهيم الجديدة من ذهن القارئ العربي، وقد ألف مجموعة من العلماء كتبا تتقارب عناوينها ومحتوياتها؛ ذلك أن كل باحث من هؤلاء أراد أن يقدم خدمة للعالم العربي ويلحقه بالعالم الغربي الذي تطورت عنده علوم اللغة وتشعبت.

من العرب الذين ألفوا في اللسانيات أول الأمر **عبد الواحد وافي** وكتابه بعنوان "علم اللغة" والذي يعتبر من أول ما كتب في اللسانيات بالعربية؛ إذا يقول مؤلفه:« وعلى الرغم من ذلك لم يكتب فيه باللغة العربية –على ما أعلم- مؤلف يعتد به اللهم إلا بعض كتب قديمة تمثل هذه البحوث في أدوار طفولتها الأولى...حيال هذا رأيت أن الواجب يحتم على تدريسه –وقد وقفت قسطا من جهودي على هذا العلم، وقمت بتدريسه مدة طويلة- أن أقوم بأول محاولة في هذا السبيل، فكتبت هذه العجالة معتمدا فيها على طائفة كبيرة من أوثق المصادر العربية والافرنجية التي يرى القارئ بعضها مشارا إليه في ثنايا تعليقاتنا وبعضها مدونا في ثبت المراجع في لآخر الكتاب»[1].

من الكتابات التمهيدية في هذا العلم، يمكن ذكر مؤَلف محمد المبارك الموسوم بـ" فقه اللغة" والذي سعى من خلاله إلى تقريب علم اللغة من القارئ العربي وتيسير فهمه ودراسته، وهو كما يقول مؤلفه ثاني المؤلفات في علم اللغة:« ولم يكن في العربية كتاب حديث جامع لهذه الأبحاث إلا كتاب الدكتور عبد الواحد وافي بجزئيه علم اللغة وفقه اللغة، وقد حاول المؤلف فيهما أن ينقل الأبحاث الحديثة في الانجليزية والفرنسية إلى العربية»[2]. وعلى هذا فإن الباحثين العرب الذين ألفوا مبكرا في اللسانيات ؛ إنما سعوا إلى إثراء المكتبة العربية، ونقل المعارف التي تطورت عند الغرب إلى بلادهم، وكذا لفت انتباه الباحثين إلى مواكبة هذا التقدم.

من الذين كتبوا في اللسانيات التمهيدية:

محمود السعران (علم اللغة مقدمة للقارئ العربي)

عبد الصبور شاهين (في علم اللغة العام)

توفيق محمد شاهين (علم اللغة العام)

صالح الكشو (مدخل إلى اللسانيات)

محمود فهمي حجازي (مدخل إلى علم اللغة)

التهامي الراجي (توطئة لدراسة علم اللغة)[3]

من المؤلفات التي لم تلق اهتماما كافيا ولم يرجع إليها في كثير من الدراسات، كتاب"توطئة لدراسة علم اللغة، للدكتور التهامي الراجي الهاشمي، المولود بمدينة فاس المغربية سنة 1936م، والمتحصل على دكتوراه دولة في القراءات تخصص لسانيات، عين سنة 1974 أستاذا باحثا بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ثم مندوبا للرصيد اللغوي بالمغرب.

من مؤلفاته اللغوية: توطئة لدراسة علم اللغة، بعض مظاهر التطور اللغوي، الثنائيات اللسانية، وظيفة اللغة في مجتمعنا المعاصر.

1) كتاب تؤطئة لدراسة علم اللغة

يقول التهامي الراجي الهاشمي في مقدمة كتابه: « أقدم للقارئ العربي هذا المؤلف الذي يفتح سلسلة من الدراسات اللغوية، وهي سلسلة أقصد من ورائها سد الفراغ الخطير الذي يشتكي منه علم اللغة في عالمنا العربي»[4]، وفي هذا القول إشارة واضحة إلى أن هذا العالم الذي عُرف بتضلّعه في علم القراءات والذراسات القرأنية، قد أحسّ بفجوة تفصل العالم العربي عن العالم الغربي في مجال الدراسات اللغوية، وهو ما يثبته قوله:« ومن المعلوم أن علم اللغة بلغ بجميع فروعه في هذه السنوات الأخيرة من الدقة والتشعب، بفضل جهود أقطاب مبرزين فيه، إلى درجة لم يبق معها في العلوم النظرية الصرفة ، بل أصبح علما دقيقا له قواعده الثابتة ونظرياته المتناهية في الضبط»[5].

اختار التهامي الراجي الهاشمي طريقا واضحا لهذه الدراسة؛ حيث انطلق فيها من التعاريف والمفاهيم الأساسية، ولذلك فقد عنون كتابه بـ: توطئة لدراسة علم اللغة التعاريف، كما أنه بيّن ما يرمي إليه في المقدمة فقال:« من أجل ذلك كان لزاما عليّ وأ،ا واحد من المجموعة المسؤولة عن علم اللغة في البلاد، أن أبدأ من البدء، فأقد للقارئ العربي توطئة تساعده على معرفة اللغة وتهيئه لتتبع الخطوات اللاحقة بيسر وبمردود كبير»[6]، فليس من المعقول- كما يرى- أن ينطلق العرب في علم اللغة مما توقف عنده الغربيون، ذلك أن الفهم سيستحيل على القارئ العربي الذي لم يدرك بعد الاتجاه الصحيح الذي يسير فيه علم اللغة، ولذلك يجب –أول_ أن يعرف القارئ العربي المفاهيبم الأسيسة التي بني عليها علم اللغة، ثم يتدرج في هذا العلم حتى يتسنى له مواكبة التقدم الذي يشهده.

بين اللغة واللسان

بدأ التهامي الراجي الهاشمي دراسته بتفريقه بين مصطلحي: لغة ولسان، وذلك أنه رأى أن من الأهمية بمكان الفصل بين المصطلحين وذكر دلالة كل منهما؛ حيث انطلق من استعمال لفظ "لغة" في القرآن الكريم والشعر الجاهلي، ليبيّن أن معناه "الساقط من الكلام، أو الكلام الباطل" وهو المعنى ذاته الذي يدل عليه اللفظ في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والشعر في عصر الإسلام.

أما لفظ "لسان" فمعناه ما هو معروف عندنا اليوم بـ" اللغة"، حيث يقول:«إذا رجعنا إلى الأمهات في القراءات القرآنية لاحظنا أنهم كانو يعبرون عن لفظة "اللغة" بصيغ أخرى من مادة "لسان" هذه، »[7] وهي صيغ قرئ بها في هذه الأية التي نتحذث عنها (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم 18)[8]، فقد نقل لنا لراجي الهاشمي مجموعة من القراءات المختلفة فقال:«نعرف مثلا أن أبا السمال وأبا الجوزاء وأبا عمران الجوني قرؤها لِسْن بكسر فسكون، وهي صيغة موافقة لما رأيناه عند الجوهريولبن سيده، ونعلم أيضا أن أبا رجاء وأبا المتوكل والجحدري قرأوها لُسُن بضم اللام والسين وهي جمع لسان، وهي قراء لم تأت بأي جديد بالنظر إلى الصيغة»[9].

ركّز التهامي الراجي في هذه الانطلاقة على بيان الفرق بين مصطلحي لغة ولسان، وقد نقل من الشواهد والأمثلة الكثير، ليبيّن للقارئ العربي أن العرب القدامى،د اهتموا اهتماما واسعا بالتمييز بين المصطلحات واعتماد كلّ في الموضع المناسب له.

اللغة واللهجة

من الألفاظ التي أولاها التهامي الراجي اهتماما كبيرا، لفظ "لهجة"، حيث قال« لقد كانت لفظة "لغة" تعني عندهم "لهجة"»[10]. أي أن المعنى الذي يحمله اللهجة عندنا

اليوم، كان يُدل عليه بلفظ لغة، ثم أورد لنا مثالا فقال:« ومثال ذلك قوله عز وجل:" ما هذا بشرا[11]" في لغة أهل الحجاز، وبنو تميم يرفعونها إلا من عرف كيف هي في المصحف»[12]، فلفظ لغة في هذا الموضع تحمل معنى لهجة عندنا، لأن اللهجة هي التي تختلف من قوم إلى قوم. ولتأكيد ذلك أورد أمثلة كثيرة من بينها:« ولقد تتبعت سيبويه مع طول كتابه... فألفيته يستعمل لفظة "لغة " مكان ما نطلق عليه الآن "لهجة، ليتحدث عن 23منها درسها في كتابه دراسة علمية دقيقة، معززا هذه الدراسة البالغة الأهمية بأمثلة رويت له من أفواه رجال هذه القبائل»[13].

يمكن القول إن لفظة لغة عند القدامى كانت تستعمل محل ما نعرفه اليوم باللهجات التي يتميز فيها قوم عن غيرهم في الألفاظ أو طريقة نطقها.

تعريف اللغة عند الأقدمين

في هذا الجزء يقول التهامي العرب القدامى الراجحي إن لم يهتموا بتعريف اللغة كاهتما الغرب بذلك، ومع هذا فقد عرفوها، حيث عرفها ابن جني بقوله:«أما حدها فأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[14]، حيث يرى التهامي الراجي أن هذا هو أحسن تعريف للغة، ثم ينقل لنا تعريف ابن الحاجب الذي قال:«حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى»[15].

إن ما يجب ما يجب ملاحظته في كتاب التهامي الراجحي هو رجوعه إلى العصور الأولى للتدوين عند العرب، ونقله لما ورد في مجال اللغة عندهم واستشهاده بأقوالهم، وهذا يرجع إلى كونه:

- مهتم بالدراسات القرآنية والقراءات والتراث العربي.

- رؤيه التي أفصح عنها في مقدمة الكتاب والتي يرى فيها أن الأصح هو الإنطلاق من اللبنة الأولى والمفاهيم البسيطة، ثم التدرج إلى ما هو أكثر تعقيدا.

اللغة في العصور الحديثة:

في هذا الفصل انطلق التهامي الراجي من تعريفات العلماء الغربيين؛ حيث قال:« لقد عرف علماء اللغة المعاصرون من غير العرب "اللغة" بتعاريف كثيرة، سأقدم للقارئ بعضها حسب ترتيب تحكمي لا أراعي في وضعه إلا الفائدة التي يقدمها لفكرة نشأة اللغة التي جعلتها من نقط هذا المؤلف»[16].

1/ التعريف الأول

يعرف العالم الألماني **هومبولدت wilhem von homboldt 1769** اللغة بقوله:« إن اللغة جهاز عضوي ويجب أن يعالج عل هذا الأساس»[17]، فاللغة عنده نظام عضوي وبنية وصورة باطنية مخالفة للصورة الظاهرية للكلام.

لم يكتف الراجي الهاشمي بنقل تعريف اللغة عن العالم همبولدت، بل جمع من أرائه حول ما يتعلق باللغة الكثير، فقد نقل أيضا مقولته التي تبين علاقة اللغة بالفكر حيث يقول:« اللغة هي العضو الذي يصوغ الفكر»[18].

إن التهامي الراجي وبعد أن ذكر تعريفات هومبولدت بدأ يربطها (التعريفات) بما قرأه من التراث العربي حيث ذكر أن ما اورده هومبولدت في قوله:« إن الكلام في الحقيقة شيء يمر على الدوام، بل وفي كل لحظة، فالكلام ليس في ذاته ما يحدثه الحث(أثر الحدث) بل حدث النشاط(الفعل نفسه)»[19]، قد ورد عن المعتزلة العرب فيما مضى؛ فقد قال الجرجاني متحدثا عن ماهية الكلام:« هو أن يحصل الفعل عن فاعله بتوسط فعل آخر كحركة المفتاح بحركة اليد»[20].

2/ التعريف الثاني

لم يبتعد تعريف الألماني **فرانز بوب Franz Bopp 1791**للغة عما جاء به هومبولدت، حيث عرف اللغة على أنها:« الجسم العضوي الحي»[21]، ويرجع التهامي الراجي هذا التقارب في التعريف إلى كون كا من هومبولدت وفرانز بوب يسيران في تيار واحد وهو المقارنة من أجل بيان التقارب بين اللغات الهندية الأوروبية، كما بين أن سبب اهتمامهم بيتعريف اللغة ودراستها هو العثور على مبدأ ومنشأ لغتهم الأصلية.

عاد التهامي الراجي ليربط بين تعريف فرانز بوب والنظريات الغربية التي تقول أن اللغة جهاز عضوي فهي تولد وتنشأ وتكبر وتترعرع وتكتهل ثم تشيخ وتموت[22] والتي رأى أنه(فرانز بوب) متأثر بها، وبين ما اورده السيوطي في تقسيمه للغة بين ضعيف ومنكر ومتروك، ليبيّن للقارئ العربي أن هذه التعريفات والآراء ليست بالشيء الجديد.

3/ التعريف الثالث

استطاع **شلايخر 1867/1821wilhem von shleicher** أن يبرز علما صوتيا حقيقيا يبحث تقطيع العبارة والكلمة مع التأكيد على إبراز تغيير نطق الأصوات، ولهذا فإن التهامي الراجي قد وجد أنه من العلماء الذين لابد للقارئ العربي أن يطلع على ما قدمه.

ويعرف شلايخر اللغة انطلاقا من تأثر الكبير بالنظرية الداروينية، فيقول هي:«جهاز عضوي قابل للتطور»[23] أي أن اللغة عنده ليست ظاهرة اجتماعية بل هي حادث من حوادث الطبيعة أو جهاز عضوي، ثم يعود الراجي ليربط عمل هذا العالم بدراسات علماء العرب، فيقول إن العرب قد سبقو إلى ذلك- تقطيع الكلمات- حين تحدثوا في مؤلفاتهم عن تغير الصوت، مثل اللام المفتوحة الموالية لحرف من الحروف الثلاثة الطاء والظاء والضاد، وغيرها.

4/ التعريف الرابع

يقول ميلهMillet:« إن اللغة حدث اجتماعي بالدرجة الأولى»[24] ويقول التهارمي الراجي معلقا على هذا: « وبالفعل فإن تحديدها يناسب تماما التحديد الذي اقترحه دوركايم " فاللغة وجود مستقل عن وجود كل واحد من الأشخاص الذين ينطقون بها رغم أنه ليس لها أي وجود في خارج المجموعة التي يتكون منها هؤلاء الأشخاص»[25]. فاللغة عنده متعلقة بالمجتمع الذي تستعمل فيه.

5/ التعريف الخامس

يقول العالم اللغوي الأمريكي ويتني willham dwigh whitney 1827 معرفا اللغة:« إنها ليست قوة من قوة النفس ولا هي فعل الفكر المباشر، بل أثر غير مباشر لهذا الفكر: إنها آلة»[26] وقد أراد ويتني من خلال هذا التعريف أن يبعد عن مجال علم اللغة مجموعة من النقاط منها دلراسة النصوص القديمة ودراسة وضائف الأعضاء و علم النفس اللغوي ...

6/ التعريف السادس

استنتج التهامي الراجي التعريف السادس من مجموعة آراء للعالم رومان جاكبسون، حيث يقول:«نجعل منها نحن التعريف السادس قال: إني لا أومن بالأشياء ولكن بالعلاقات بين الأشياء»[27]. وهذا التعريف – حسب التهامي الراجي- هو الذي سيكون أثره بالغا في لسانيات سوسير.

7/ التعريف السابع

قال دي سوسير de saussure معرفا اللغة:«إن اللغة وهي ما هي فمن أين نظرنا إليها لن نجد فيها بسيطا إذ دائما وفي كل ممكان نرى التوازن المعقد للألفاظ المتحاكمة، فاللغة صيغة وليست جوهرا»[28].

بعد تعريف اللغة يبين التهامي الراجي للقارئ العربية أهم المصلحات التي اصطلحها ديسوسير في الدراسات الغوية؛ حيث أطلق مصطلح الدراسة الحركية diachronique على النشاط اللغوي الذي يهتم بوصف لغة ما خلال تطورها عبر مختلف عصورها، وأطلق مصطلح الدراسة السكونية synchronique التي تهتم بوصف حالة معينة من اللغة في فترة ما.

بعد الشرح الكافي لما قدمه سوسير، يربط الراجي الهاشمي هذا الحديث بما ورد عند علماء العرب من دراسات متنوعة قاربت إلى حد كبير ما جاء به سوسير، ليوضح للقارئ أن التراث العربي غني إلى حد كبير بالدراسات التي تستحق الاهتمام بها .

في الجزء الأخير من الكتاب، بدأ التهامي الراجي يوضح للقارئ ما استنتجه من الدراسات الغربية للغة وذلك مقارنة مع الدراسات العربية القديمة، حيث عنون هذا الجزء ب**"تعريفنا"**، لكنه لم يورد تعريفا خاصا به صريحا يبيّن المفهوم الذي تبناه للغة، بل ذكر مجموعة معايير يمكن للقارئ أن يستند إليها ويكوّن –كل حسب اطلاعه- تعريفا للغة موضوع الدراسة.

خاتمة

بعد الاطلاع على ما قدمه الدكتور التهامي الراجي الهاشمي، يمكن القول:

- إن تمكن الدكتور التهامي الهاشمي الراجي من علم القاراءات ونبوغه في العلوم القرانية، وسعة علمه بالتراث العربي وأمهات المؤلفات اللغوية، مكنه من تكوين نظرته الخاصة وطريقته التي رأى أنها الأمثل لتقريب علم اللغة من القارئ العربي.
- قام الدكتور التهامي الراجي الهاشمي بنقل المعارف الأساسية التي رأى أنها الأهم والأولى بالدراسة؛ حيث بدأ من نقطة الانطلاق أي من الألفاظ البسيطة والتي رأى أن العلم بها يمكّن الالباحث العربي من التدرج فيما بعد عبر ما يستجد من معارف.
- في كل مرة كان التهاي الراجي يعود بالقارئ إلى الدراسات العربية التي رأى أنها لم تترك للغرب بابا من الأبواب إلا وسبقتهم إليه.
- اهتم التهامي الراجي في هذا الكتاب بتيسير المفاهيم الأولى لعلم اللغة ونقلها مبسسطة للقارئ العربي حتى يبني قاعدة معرفية تمكنه من التدرج بعد ذلك مع ما يستجد من نظريات.

هوامش البحث:

[1]) عبد الواحد وافي: علم اللغة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط9، 2004، ص5.

[2]) محمد المبارك: فقه اللغة، مطبعة جامعة دمشق، المقدمة.

[3]) حافظ اسماعيلي علوي: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد، ط1، 2009، ص102.

[4]) التهامي الراجي الهاشمي: توطئة لدراسة علم اللغة، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط1، 1977، ص3.

[5]) المرجع نفسه: ص 4.

[6]) المرجع نفسه: ص5.

[7]) المرجع نفسه: ص 16.

[8]) سورة ابراهيم، الأية 4.

[9]) التهامي الراجي الهاشمي: توطئة لدراسة علم اللغة، ص17.

[10]) المرجع نفسه:ص 20.

[11]) سورة يوسف،الأية 31.

[12]) التهامي الراجي الهاشمي: توطئة لدراسة علم اللغة ، ص 20.

[13]) المرجع نفسه: ص22.

[14]) المرجع نفسه: ص34.

[15]) المرجع نفسه: ص35.

[16]) المرجع نفسه: ص39.

[17]) المرجع نفسه: ص41.

[18]) المرجع نفسه: ص41.

[19]) المرجع نفسه: ص42.

[20]) المرجع نفسه: ص42.

[21]) المرجع نفسه: ص 46.

[22]) المرجع نفسه: ص 48.

[23]) المرجع نفسه: ص54.

[24]) المرجع نفسه: ص 63.

[25]) المرجع نفسه: ص63.

[26]) المرجع نفسه: ص64.

[27]) المرجع نفسه: ص74.

[28]) المرجع نفسه: 76.